قصة قصيرة

إنّها مدينتي

هيام محمّد

حطّ الليل.. في غرفة صغيرة بأعلى شقة في البناية وقفت تحملق بالنجوم المفروشة في الظلام فوق المدينة.. البرد كان ربيعيا ينعش الروح.. هذه المدينة الخضراء الوديعة تبتسم بودٍّ ونعومة أمام عينيها الغارقتين في التيه.. «من الممكن أن أقف هكذا أحلق في الظلام الى ما لا نهاية».. البحر يصخب بامتداد سمعها، تحجبُ الظلمةُ زرقته الرائعة.. وهناك وعلى بعد آلاف الكيلومترات يمتد شط العرب على طول مدينتها الساحرة السمراء، أزرق دافئاً، يغوص بالذكريات داخل قلبي.. تغصّ.. تبتلع ريقها بصعوبة..

- بردت قهوتك.. «الصوت الهامس ينطق من جديد التفتت بسرعة، لم تلتقِ نظراتها إلا بجدران الغرفة الأربعة كانت مغطاة بورق أنيق مصقول يشبه الى حد بعيد بلوزتها المقلّمة التي تلتصق بجسدها المحموم..

- هل أنتِ محمومة؟

كفها الصغيرة ترتفع نحو جبينها سريعاً

- لا.. إنما ضجرة..

تضحك، إنها تعاود الحديث مع نفسها.. الغرفة خالية الا من بضعة كراسي تتناثر بنظام، وإلاّ من فنجان القهوة البارد المغروس امامها.. منذ أكثر من خمس سنوات وهي تعيش حواراً ساخناً مع هذا الصوت الهامس الحنون الذي يخاف عليها من نفسها كما يقول..

- سأشرب قهوتي..

رفعت الفنجان نحو شفتيها وبدأت بالارتشاف.

- أتريد أن أعمل لك فنجان قهوة؟..

كفها ترتجف.. قطرتان صغيرتان تتدحرجان فتبقعان بلوزتها الجديدة. تحملق بها قليلا ثم تبتسم..

يرنّ التلفون..

«سأدعه يرن.. لا أحتمل أحداً كائناً من يكون.. سأغلق أذنيّ.. كم أنا ضجرة، ثم إني مجازة ومن حقي التمتع باجازتي حتى آخر يوم»..

رن.. رن.. رن «ما الذي سأفعله؟ إني متعبة ومريضة».

نظرت الى الساعة الصغيرة المصلوبة فوق الجدار أمامها.. كانت تعلن العاشرة صباحاً، قفزت وهي تدفع الغطاء عن جسدها.. رنين التلفون لا يطاق.. آه.. تنفست بعمق.. الربيع جميل.. أحلى أيام هذه المدينة الحبيبة، وأقصرها كذلك.. فتحت الشباك.. شط العرب، النهر الأزلي بروعته وعنفوانه، ينزع عنه قميصه الحريري ليرتدي بدلة كاكية ويعتمر خوذة حديدية ثم ينتصب شاهراً سيفه.

- آلو..

- الحمد لله.. أنتِ هنا، ظننتك في المدرسة.

- ولماذا؟ لا زلتُ مجازة..

- ألم تسمعي القصف المدفعي، حتى إن كنت نائمة كيف لم تسمعيه، كان قوياً جداً هذه المرة.. عرفتُ انه كان موجهاً نحو «محلة العباسية» ولذلك اتصلت، خابرتُ المدرسة كثيراً ولكن التلفون ظلّ مشغولاً..

لم تسمع كل ما كانت تقوله زوجة أخيها..

العباسية.. الولد.. المدرسة.. أغلقت السماعة.. ابني.. المدرسة.. ربما استهدف القصف المدرسة بالذات، ربما هو الآن متناثر داخل صفه.. اقشعرت.. «مَن أسدل الستائر السوداء الحالكة فوق بياض عيوني»؟ كورّت كفها اليمن وظلت تضرب رأسها بقوة.. أرادت أن تفيق من أفكارها وبسرعة.. معطفها الاسود يترنح فوق كتفيها.. اللعنة.. أين مفاتيح السيارة؟ خرجت نحو سيارتها، حمداً لله لم تخذلها، تحركت سريعاً.

في الطريق كان كل شيء يبدو على ما يرام.. «المدرسة.. يالإلهي، الأطفال الابرياء، والوجه الصغير الابيض المدوّر.. ترى هل جمّده الرعب؟ هل ارتجف كثيراً حين دوّى الصوت المرعب وحين بدأت الابواب بالاهتزاز وزجاج النوافذ بالتحطم.. هل..؟ لا.. لا..

- لا تخاف يا ماما.. نحن نفتح الشبابيك فور ابتداء القصف، ونصطف خلف الاكياس الرملية التي تسوّر أبواب صفوفنا..

«الانذال.. الجبناء.. لم يسلم منكم حتى الصغار الابرياء ذوو الوجوه المضيئة».

-يارب.. إحمه لي يا رب.. أنقذه يارب.. انه الشمعة اليتيمة، انه نبضات القلب الواهن، انه النسمة في زمن الاختناق، إنه أنا.. أنا بكل سنوات عمري المثقلة بالهموم.. انه وحيدي يارب..

سيارتا اسعاف تمرقان.. تصوتان وهما متوجهتان في الاتجاه نفسه.. سيارة دفاع مدني تتبعهما.. تيبّست شفتاها.. شط العرب يشمخ على الجانب الأيسر من الطريق، هادئاً أبيّاً مثل كل أهالي مدينتها الذين يملأون الطرقات دون أن تفارقهم ابتسامتهم الطيبة.. «المدرسة.. أين أنتِ؟».

زعق بوق سيارة جيش كبيرة محمّلة بالجنود.. تحركت يميناً لتفتح الطريق لحاملة الابطال.. رفعت عينيها نحوهم.. وجوههم تبتسم، بيضاء مدوّرة بعيون واسعة.. فركت عينيها، إنهم يشبهونه.. خصلات شعره تتدلى فوق جباههم، جميعا، يرفع أحدهم يده بالتحية نحوها.. «إنه هو، لم يمسه السوء.. الحمد لله، المدرسة لم تكن مستهدفة.. الحمد لله»..

- إنتظر، اسمعني، أنا أمّك.. سمعت دويّ المدافع المعادية وجئت اطمئن عليك، أين ستذهب.. لا زلتَ صغيراً على القتال..

«ابتعدوا عنها.. ابتعدوا كثيراً.. والستائر الحالكة السواد تسدل فوق بياض عيونها من جديد»..

داست فرامل السيارة بقوة.. أوقفتها في فرع قريب.. «لا أقدر على قيادة السيارة.. سأسير نحو المدرسة على قدميّ، لم تعد بعيدة»..

هرعت راكضة.. سيارتا الاسعاف وسيارة الدفاع المدني بباب المدرسة..

السيارات مكتظة أمام باب العمارة التي تقطن احدى شققها.. واحدة من الشقق الأرضية عامرة بالأنوار والصخب.. أجساد السيارات متراصفة، امتدت بجسدها عبر النافذة نحو الشقة الصاخبة، «كم هو بعيد هذا الفراغ الذي يفصلني عنهم»..

الليل يوشك أن ينتصف.. «لو أرخيت أصابعي قليلا عن خشب النافذة لتلقفتني سقوف السيارات دون أن أصاب بأذى.. آه.. لو كان الظلام أقلّ حدة، لتمتعت برؤية البحر.. منذ صغري وأنا أحبّ الغوص في أعماق البحر.. أحلى الأيام تلك التي أكون مستقرة فيها عند قعر البحر، أنبش قاعه علّني أقدر على حفر قبر صغير يكفي لاحتضان هذا الجسد الذي يزداد غربة عني يوماً بعد يوم.. حفرتُ كثيراً حتى تكسّرت أظافري».. سلطت نظراتها فوق كفيها المستريحين على ساقها الممدودة قرب فنجان القهوة الصابر، المنتظر.. أظافرها متقشفة..

ابتلع البحر جمال أصابعها وطراوة كفيها.. القبر المبلول ما زال غير مكتمل.. «لو كان جسدي أقل امتلاء لنمت في قبري منذ اليوم ولبدأت بمراقبة أسماك البحر المتوحشة»..

- نرجس.. انه نرجس، اشترِ لي باقة الورد هذه..

توقفت سريعا ودون أن يتكلم، أومأ للصغير الذي هرول بدوره نحوهم وباقة النرجس تحتضّ فوق صدره لاهثة..

- بكم هذه الباقة يا صغير؟.
- خمسمائة مليم.
- هاتها.. خذ.. شكراً..

التفت نحوها مرتاحاً.. تلقفت الورد منه واحتضنته ملهوفة.. أغمضت عينيها قليلا..

- كنتُ أحبه دائماً..
- ليتكِ تحبينني دائماً..

تفرست بوجهه.. كان اسمر وسيما، عيناه غائرتان قليلا.. مدت أصابعها نحو خديه العريضين.. مسّدت على وجهه بحب دون أن يقول شيئاً، لكنها اقتربت منه أكثر، كانت ترتاح حين تحتمي بقامته الطويلة وهما يسيران.. ظلا يتمشيان قرب البحر.. كان يوم أحد ربيعياً..

- الحزن في عينيك.. لم أر مثل عينيك.. انها مستودع للأحزان.. نحن نحيا الربيع.. لا أثر له في عينيك.. أجل بحر يرتمي بين قدميك.. اقتربا من البحر حتى أن المياه بدأت تغمر أرجلها...

«لا يدري أنني أقصد هنا المكان دائماً.. لا يعرف ان لي فيه قبرا حفرته بأظافر كفيّ.. لم يكن قد رأى شط العرب حين ارتدى قميصاً كاكياً ووضع فرق رأسه خوذة جندي..

- آه.. انظر كم هو ساحرٌ منظرهما.. انظر!

التفتا نحو الرمال.. أجساد عارية ممددة تحت الشمس..

- انظر الصغير يتمدد عارياً لصق أمه تماماً.. ما أجملها.. ما أروع التصاقه بأمه...

- ماما.. ماما (الصغير يصرخ دون دموع).

مديرة المدرسة تحتفظ بصلابتها وهدوئها.. بعض من رجال الدفاع المدني يتفحصون الأضرار.

- ابني.. أرجوكِ.. أين ابني؟.. هل أصيب أحد؟..

- لا تخافي.. اهدئي، ابنك بخير.. أصيب طفلان وإحدى المعلمات.

- ولكن.. (بدأت تنتحب).

- اهدئي يا عزيزتي، اصاباتهم بسيطة.. تعرفين أول إطلاقة معادية تكون مفاجئة ولا يمكننا تجنب أضرارها..

في الداخل تسمع لغطاً وضجيجاً طفولياً عذباً، هرعت نحو الساحة.

- ابني.. أين أنتَ؟.

رجال الدفاع المدني يفحصون جانباً من الأضرار في الجدار الذي اخترقته القذيفة.

- ابني!.

وجهه أبيض مدوّر وخصلة شقراء تتدلى فوق عينيه الحلوتين الواسعتين..

رفع بصره نحوها، يلتف حوله عشرات الأطفال الصاخبين.. «كأن العدوّ لم يقصفهم لتوّه» كانوا يبحثون عن شيء ما، يتزاحمون..

- ماما.. انظري.. «هرع إليها» خدوده وردية، كان يحمل قطعة صغيرة حديدية غير مشذّبة..

نظرت الى عينيه وهما تلتمعان.. لا أثر للخوف.. نظرت الى قطعة الحديد الصغيرة، الثقيلة وهو يرميها وسط كفها.. سألته دون وعي..

- ما هذه؟

- إنها شظية يا ماما.. أنا وأصدقائي جمعنا كل الشظايا التي تساقطت في مدرستنا وتقاسمناها..

ابتعد عنها.

ظلت مسمّرة، شاخصة نحوهم.. انها مدينتي.. وهم.. هم ربيعها..

هيام محمد/العراق